فوائد لغوية

Notes Lexicographiques.

نقد تاريخ الادب العربي

— ٣ —

قرأ الزيات الاستاذ المهذب ما كتبناه في نقد الطبعة الثانية من كتابه هذا فلم يسخط ولا اوجسنا منه شأن المستكبرين بل اهدى الى ادارة لغة العرب نسخة من كتابه من الطبعة الخامسة المزيدة المنقحة بمطبعة الاعتماد بالقاهرة ١٣٤٩ هـ ١٩٣٠ م، وكأنه رأى في الطبعة الثانية ما يلوي بمجهوده الذي أودع الطبعة الاخيرة اياه ، ومن احرى بالحق من صاحبه ؟ واشرف من طالبه ؟ ولم يبعث بالكتاب غفلا بل ارسل به وبكتاب يبين عما (١) اضطم عليه هو من نفس كريمة واخلاق طاهرة وطبع هادئ ، ومما كان في هذا الكتاب انه لم يوافقنا على الفصاحة التي تنشأ من استعمال جمع القلة وجمع الكثرة في مواضعهما محتجاً بان ذلك القيد من قيود القدماء الركيكة ، ولايضاح الامر نورد ماجاء في المصباح المنير . قال الفيومي: « واما ثلاثة قروء فقال الاصمعي: هذه الاضافة على غير قياس والقياس ثلاثة اقراء لانه جمع قلة مثل ثلاثة افلس وثلاثة رجلة ولا يقال : ثلاثة فلوس ولا ثلاثة رجال ، وقال النحويون : هو على التأويل والتقدير : ثلاثة من قروء لان العدد يضاف الى مميزه وهو من ثلاثة الى عشرة قليل والمميز هو المميز فلا يميز القليل بالكثير ، قال: ويحتمل عندي انه قد وضع احد الجمعين موضع الآخر اتساعاً لفهم المعنى — هذا ما نقل عنه — وذهب بعضهم الى ان مميز

١) أبان عنه اي أعرب عنه ، ولم نجد « ابان » يتعدى بـ « عن » في ما عندنا من كتب اللغة ، ولكن استعمله هكذا أبو جعفر الاسكافي وابو هلال العسكري في جمهرة الامثال (ص ٣) والشريف المرتضى علم الهدى في اماليه « ج ٤ ص ٩ » وعبد الحميد بن أبي الحديد في شرحه « مج ٢ ص ١٤٦ » و « مج ٣ ص ١٩٥ » وابن جني في الخصائص على ما في « ج ١ ص ٨ » من المزهر فهذا الاستعمال مستفيض في القرن الرابع للهجرة .

الثلاثة الى العشرة يجوز ان يكون جمع كثرة من غير تأويل فيقال : خمسة كلاب وستة عبيد ، ولا يجب عند هذا القائل ان يقال: خمسة اكلب ولا ستة أعبيد » اه وهذا السبب الذي حملنا على اننا لم نخطىء الاستاذ الزيات ولكن لم نستفصح قوله ، على انه — حفظه الله — على بينة من تكلفات القدماء محق في دعواه ، وقال المبرد في « ٢ : ١٩٢ » من الكامل توضيحاً لقول عمر بن ابي ربيعة :

فكان مجني دون من كنت اتقي ثلاث شخوص كاعبان ومعصر

ماصورته « وقوله ثلاث شخوص ، والوجه ثلاثة اشخص » : قلنا وكان المبرد قد قال — كما في « ١ : ٦٠ » من كامله « وتصير حروف المضارعة تابعة للياء » وقال فيها « وحروف الحلق ستة الهمزة والهاء والعين والغين والحاء والخاء » ولم يقل « الوجه ان اقول : أحرف المضارعة واحرف الحلق » فما احراه بذلك!.

ظهور الاسلام واستقلال العدنانيين

وقال في ص ٣ عند كلامه على اعصر الادب « العصر الجاهلي ويبتدئ باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد وينتهي بظهور الاسلام سنة ٦٢٢ م» قلنا : ما نعلم حقيقة هذا الاستقلال ولم يذكر الزيات مصدر روايته وكل امر تاريخي يذكر اليوم بلا مرواه لا يركن اليه ولا يوثق به ، فان كان الزيات على ثقة من ان العدنانيين استقلوا في القرن الخامس للميلاد فكيف يقول في ص ١٣ « فان القحطانيين جلوا عن ديارهم بعد سيل العرم — وقد حدث عام ٤٤٧ م كما حققه غلازر الالماني — وتفرقوا في شمال الجزيرة واستطاعوا بما لهم من قوة وما كانوا عليه من رقي ان يخضعوا العدنانيين لسلطانهم في العراق والشام كما اخضعوهم من قبل لسلطانهم في اليمن» وروى الواقدي في المغازي — كما في مج ٣ ص ٣٦٢ » من شرح ابن ابي الحديد قول إياس بن اوس بن عتيك لرسول الله (ص) « وقد كنا يارسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا فلا يطعمون بهذا منا حتى نخرج اليهم باسيافنا فنذبهم عنا ، فنحن اليوم احق اذ امدنا الله بك .» وفي ص ٣٦١ منه قول عبدالله بن أبي « يارسول الله كنا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة [أي يثرب] ونجعل النساء والذراري في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة ، والله لربما مكث الولدان شهراً ينقلون الحجارة إعداداً لعدونا ونشبك المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل

ناحية وترمي المرأة والصبي من فوق الصياصي والآطام ونقاتل باسيافنا في السكك، يا رسول الله ان مدينتنا عذراء مافضت علينا قط ،وما خرجنا الى عدو قط منها، إلّا أصاب منا ،وما دخل علينا قط إلّا اصبناه» ففي الحجاز كانت الحروب والغزوات حاملة اوزارها ،والمدينة كانت للقحاطنة . اما مدة الجاهلية فهي « ١٢٠» سنة(١) ولم يذكر الزيات اسم القحطانيين المتغلبين على عدنانيي الشام والعراق في هذا القرن المذكور ، ولعله اراد الغساسنة واللخميين فاللخميون مبدأ ملكهم على العراق سنة « ٢٦٨ م» (٢) ويقاس زمن الغساسنة على زمنهم ، وحينئذ لا يوافق زمن جلائهم وقت ملكهم فيلزم ان يكون الجلاء قبل ما نقله الاستاذ الزيات ، واما ان الاسلام ظهر في سنة « ٦٢٢ م » فغير مقبول ، لان هذا زمن هجرة الرسول — ص — من مكة الى المدينة كما ذكر هو في ص ٨٧ فقد قال « فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ لعلو كلمته وانتشار دعوته وتمام نصرته» فالصواب ان يقول «وينتهي بالهجرة سنة ٦٢٢ م » أو يستبدل به ما يريد .

رحلة الحجازيين التجارية

وقال في ص ٧ « إلّا قريشاً فتحضروا لقيامهم على البيت الحرام وايلافهم رحلة اليمن والشام » ثم قال في ص ١٦ عن قريش ايضاً « وإيلافهم رحلة الشتاء الى اليمن ورحلة الصيف الى حوران » قلنا : اما رحلتهم الى الشام فجائزة الحكم لان مرتعلهم داخل في ما يشمله الشام واما تخصيص الرحلة بحوران فنحن نشك في جوازه ، قال الواقدي « وحدثني هشام بن عمارة بن أبي الحويرث ، قال : كان لبني عبد مناف فيها [أي في العير] عشرة آلاف مثقال وكان متجرهم الى غزة من ارض الشام (٣) » وقال الواقدي ايضاً « فكانت العير الف بعير وكان المال خمسين الف دينار وكانوا يربحون في تجاراتهم بالدينار ديناراً وكان متجرهم من الشام غزة لايعدونها إلّا غيرها (٤) » .

وقال ابن خلكان في ترجمة ابراهيم الغزي « ولد الغزي المذكور بغزة وبها

١) ج ١ ص ١٨٤ من امالي الشريف المرتضى (٢) العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان ص ١٩٨ (٣) شرح ابن أبي الحديد « مج ٣ ص ٣٢٠ » (٤) الشرح المذكور « مج ٣ ص ٣٥٨ » .

قبر هاشم جد النبي ــ ع ــ ... وغزة بفتح العين المعجمة وتشديد الزاي وبعدها هاء وهي البليدة المعروفة في الساحل الشأمي ... من اعمال فلسطين على البحر الشأمي بالقرب من عسقلان وهي في اوائل بلاد الشام من جهة الديار المصرية وهي إحدى الرحلتين المذكورتين في كتاب الله العزيز في قوله تعالى : «رحلة الشتاء والصيف» ، واتفق ارباب التفاسير أن رحلة الشتاء بلاد اليمن ورحلة الصيف بلاد الشام فقد كانت قريش في متاجرها تأتي الشام في فصل الصيف لاجل طيبة بلادها في هذا الفصل، وتأتي اليمن في فصل الشتاء لانها بلاد حارة لا تستطيع الدخول اليها في فصل الصيف ، قال أبو محمد عبد الملك بن هشام في اوائل سيرة رسول الله ــ ص ــ : أول من سن الرحلتين لقريش رحلة الشتاء والصيف هاشم جد النبي ــ ع ــ ثم ذكر بعد هذا بقليل ، قال ابن اسحق: «هلك هاشم بن عبد مناف بغزة من ارض الشام تاجراً » اه كلام ابن خلكان .

فقول الاستاذ الزيات يستلزم له مصدر ثقة، فان الواقدي ذكر انهم لا يجاوزون غزة في متاجرهم .

الخصيص والخصيصة

وقال الاستاذ في الصفحة نفسها تعليقاً « أن البداوة خصيصة العرب في التاريخ القديم » وقد قال الفاضل أسعد خليل داغر في (ص ٦٤، ٦٥) من تذكرة الكاتب: « ولهم في هذه الايام باستعمال كلمة : خصيص وخصيصة ، ولع يفوق الوصف حتى انك قلما تجد كاتباً يتجافى عن استعمالهما فتراهم يقولون : دعاني اليه خصيصاً واقام له حفلة خصيصة وكان كلامه موجهاً الي خصيصاً ، وكأني بهم حذفوا من معاجم اللغة كلمة : مخصوص ومخصوصة وعلى الخصوص وخصوصاً وخاصة ، واستغنوا عنها كلها بكلمة : خصيص وخصيصة ، ولا يخفى ان صيغة فعيل بمعنى المفعول ليست من المقيسات بل هي مما يؤخذ بالسماع ، ولم ينقل عن العرب : خصيص بمعنى مخصوص، نعم انه سمع في بيتين قالهما ابو الرقمع(١) ويخيل الي ان فقره الادبي كان أشد من فقره المادي ، وإلا لم يضطر الى مخالفة

١) قال هو في الحاشية « ولكن العلامة احمد باشا تيمور نبهني على ان اسم الناظم : أبو الرقعمق كما ورد في معاهد التنصيص... وفيه وردت الكلمة : خصوصاً ، لا خصيصاً » وفي الوفيات : ابو الرقعمق احمد بن محمد الانطاكي ١ : ٥٦ و٥٧ و٥١١ ، ثم ٢ : ٢٢٥ و٤٩٧

المسموع في هذا الاستعمال وكان في استطاعته ان يقول : واتى الي رسولهم مخصوصاً ، ويتخاص من خصيص ... » وتابعه على هذا الرأي الشيخ ابراهيم المنذر فقال في ص ٤٤ من كتابه « كتب خصيصاً لهذه المجلة : كتب خصوصاً أو خاصة لهذه المجلة لان وزن فعيل لم يسمع فصيحاً من هذا الحرف وابن الرقمع (كذا) لايعد حجة بقوله :

أصحابنا قصدوا الصبوح بسحرة واتى رسولهم الي خصيصاً ... » اه

قلنا : لايرى اللغوي الاديب التحري ولا التدقيق في ما اجمع عليه هذان الفاضلان لان هذه الكلمة وامثالها مما يبنى عليه أساس ترقي العربية في عصرنا . فينبغي لهما التوسع والتبسط في الكلام عليها ، فالخصيصة اما بمعنى « الخصوص» كالجريرة والجريمة والرذيلة والشتيمة والسيئة والسوية والفضيلة والقذيمة والنقيصة والنميمة وهي اسماء مصادر ، واما بمعنى « خاصـة » واما بمعنى « مخصوصة » فالاولى كما في قول ابن ابي الحديد عن علي بن ابي طالب ـ ع ـ « فسبحان من خصه بالفضائل التي لاتنتهي ألسنة الفصحاء الى وضعها وجعله امام كل ذي علم ، وقدوة كل صاحب خصيصة (١) » وقال ابو جعفر الاسكافي ـ رض ـ « وهل ينتهي الواصف وان أطنب ، والمادح وان اسهب الى الابانة عن مقدار هذه الفضيلة والايضاح بمزية هذه الخصيصة (٢) » .

والثانية كما في قول الامام علي ـ ع ـ في نهج البلاغة « أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب ، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر ، وقد علمتم موضعي من رسول الله ـ ص ـ بالقرابة القريبة ، والمنزلة الخصيصة ، وضعني في حجره » أي المنزلة الخاصة وهي ضد العامة ، واما الثالثة فهي كالذبيحة والنطيحة والبحيرة ففي مادة « ش ج ١ » من مختار الصحاح « ويقال : ويل للشجي من الخلي ، قال المبرد : ياء الخلي مشددة وياء الشجي مخففة ، قال: وقد شدد في الشعر وانشد : نام الخليون عن ليل الشجيينا ، فان جعلت الشجي فعيلا من شجاه الحزن فهو مشجو

١) شرح النهج « مج ١ ص ٤٣ » وقال يعقوب بن صابر الحراني :

وبقاء السمند في لهب النا ر مزيل خصيصة الياقوت

٢) الشرح المذكور « مج ٣ ص ٢٥٠ » .

وشجي . كأن بالتشديد لاغير » فهذا دليل على ان« فعيلا » بمعنى مفعول مقيس من كل فعل ثلاثي متعد لا تراه يقول « ان جعلت » وقد اولعت العرب بفعيل بدلا من مفعول لخفته على اللسان وربما التبس بفاعل ولكننا لم نبال ذلك فقالت « البديع » لكليهما ومثله « الصريخ » للمغيث والمستغيث .

واما الخصيص فثابت بحكم الخصيصة ، قال ابن خلكان في ترجمة بهاء الدين زهير: « واخبرني جمال الدين ابو الحسن يحيى بن مطروح ... قال : كتبت اليه ـ وكان خصيصاً به ـ» ونقل في ترجمة شهدة الكاتبة: « ثم علت درجته [أي درجة ثقة الدولة الانباري] الى أن صار خصيصاً بالمقتفي» والقول للسمعاني وفي ص ٤٥ من نسختنا للحوادث الجامعة « فكاتبا جماعة من الاتراك الخصيصين بالعادل محمد ».

وتحويل « فاعل » الى فعيل للمبالغة مطرد ، قال ابن عقيل في شرح الالفية: « يصاغ للكثرة فعال ومفعال وفعول وفعيل وفعل فيعمل عمل الفعل » فماذا الذي يمنع « الخصيص » بمعنى الخاص من الموانع ؟ وليس في العبارات التي ذكرها أسعد خليل داغر وابراهيم المنذر ما يعين لفظ « الخصيص » للمخصوص لانه يقبل المعنيين على تأويلين لايخفيان على الاديب ، فقول الاستاذ الزيات صواب سماعاً وقياساً وعقلا ، وما تعرضنا له إلا لكونه معضلة لغوية عجز عنها الحالون على كبر دعواهم، ثم اننا نرى ان الخصائص جمع خصيصة لا خاصية كما رآه غيرنا .

دين شعيب بين العرب

وقال في ص٨ «وانما كان بقية اثرية من دين ابراهيم جاءتهم من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوهة » قلنا : بل كان من العرب من يدين بدين شعيب ـع ـ قال الحارث بن كعب المذحجي لبنيه لما حضره الموت: « يا بني قد أتى علي ستون ومائة سنة ماصافحت بيميني يمين غادر ، ولا قنعت نفسي بخلة فاجر ، ولاصبوت بابنة عم ولا كنة ، ولاطرحت عندي مومسة قناعها ، ولابحت لصديقي بسر واني لعلى دين شعيب النبي عليه السلام وما عليه احد من العرب غيري وغير أحيد بن خزيمة وتميم بن مرة فاحفظوا وصيتي وموتوا على شريعتي ...(١) » ومن المؤكد ان بين دين ابراهيم ودين شعيب فرقاً بحسب تطور الانسان وتبدل الزمان وتغير القرون وقانون الرسالة بل ان في الاسلام منسوخاً وناسخاً وهو دين رسول واحد . م. جواد

١) امالي الشريف المرتضى « ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ » .